لباس الرأس

اذا أَلف الانسان عادة وتأصلت فيهِ تصبح لديهِ في حكم الاعمال المقدسة فيعدّ الاستهانة في الدفاع عنها من الباقيات الصالحات والاستهانة بشأنها من السيئات المرديات

والناظر في الاديان السماوية الشائعة لا يعثر في تضاعيف اسفارها على ما يحتم عليهِ ان يتمسك بهِ من العادات اللهمَّ الاَّ ما كان لهُ علاقة بالاخلاق والآداب اذ الديانات ما جاءت الاَّ لتدعو الى معرفة الصانع المبدع وتكفَّ من تعادي البشر وتردعهم عن سُبُل الغواية وتطهر نفوسهم واعدة بمعادٍ ثانٍ كلٌّ من اصلح اعمال قلبهِ وتقرَّب بانواع الزُّلفى من ربهِ . وما ظهرت الاديان بما وهم الواهمون لتعريف العلوم وتحديد الصناعات وما يحتاجهُ الناس في هذه الحياة الدنيا

ولقد لغط بعضهم هذه الآونة في مصر والشام بفتوى استصدرها احد سكان الترنسفال في الوخصة بلبس المسلمين القُبَّعة [1] مجاراةً لمواطنيهم من الافرنج وتناديًا من ان يناهم اذًى اذا ظلوا محتفظين بشعار رأسهم حتى كاد يوقن من لا يعرف الاسلام ان لبس القبَّعات من العلامات وان ما تواطأ اهل هذا العصر على ستر رؤوسهم بهِ من الصوف او الفرو او القش او الحرير او القطن على اختلاف اشكالهِ هو هو عماد الدين وأمّ اساس اليقين . على ان الامر اقلُّ مما توهموهُ واكبروهُ يناقضهُ ما ورد في الحديث الصحيح من ان الشارع الاعظم قال كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة . وقال ابن عباس كلّ ما شئت والبس ما شئت ما خطئتك اثنتان سرف او مخيلة

وقد ثبت انهُ عليهِ الصلاة والسلام لبس الجبة الرومية مع انها من لباس النصارى واكتسى الطيلسان [2] الكسروي وهو لبوس مجوس الفرس وكذلك الصحابة لم يتحرجوا من لبس اهل البلاد التي افتتحوها نصارى كان اهلها ام مجوسًا . وصحَّ ان الناس نساءً ورجالاً لبسوا البرانس [3]

(١) القبعة كقنبرة خرقة تغاط كالبرنس كان يلبسها الصبيان وقد اطلقت على « البرنيطة » لما بينهما من الاولى والثانية من الشبه . جاء في تاج العروس وصاحب القبيح مصغرًا لقب الشريف عمر بن احمد الاهدل اليمني لانهُ كان يلبسهُ دائمًا على راسهِ وهو مثل القلنسوة من خوص النخل

(٢) الطيلسان مثلثة اللام وليس عربيًا اصلهُ بالفارسية تالسان قال في التاج ومن المجاز يقال في الشتم يا ابن الطيلسان اي انك اعجمي لان العجم هم الذين يتطيلسون وجمع الطيالسة

(٣) جاء في التاج البرنس بالضم قلنسوة طويلة وكان الناس يلبسونها في صدر الاسلام قالهُ الجوهري او هو كل ثوب رأسهُ منهُ ملتزق بهِ دراعة كان او جبة او مقطرًا قالهُ الازهري وصوبوهُ وهو من البرس بالكسر القطن والنون زائدة وقيل انهُ غير عربي

اول الفتح من غير نكير مع انها من لبوس اهل النصرانية. وقد سئل مالك عن البرنس وكان من لباس الرهبان فقال لا بأس بهِ قيل لهُ فانهُ من لبوس النصارى قال كان يلبس ههنا. وقال عبدالله بن ابي بكر ما كان احد من القراء الاَّ لهُ برنس رواهُ بن حجر. وجاء في سفر السعادة للفيروزابادي انهُ صلى الله عليهِ وسلم لبس السراويل ولبس العمامة بغير قلنسوة[٤] ومع القلنسوة والقلنسوة بغير العمامة وكان يجعل العذبة بين كتفيهِ في اكثر الاحوال. قال وكان يلبس الثوب المعلم والثوب الساذج والثوب الاسود والفرو المعلم على اطرافهِ بالسندس وكان لهُ جبة خسروانية مفرّجة عليها سجف من الديباج مخيطة واما الطيلسان فانهُ كان يلبسهُ حال الحركما في اليوم الذي أمر فيهِ بالهجرة فانهُ جاء في نصف النهار الى بيت ابي بكر وهو مطيلس واما حديث انس كان يكثر القناع يعني يلبس الطيلسان كثيرًا فحملهُ بعضهم على اوقات الضرورة وفي السفر

ويروى ان ابا يوسف من اصحاب ابي حنيفة ارتأى تخصيص العلماء بزيّ خاصّ في الملبس ليُعرفوا فيطاعوا وتكون كلمتهم العليا اينما حلوا فتابعهُ على هذا الرأي بعضهم واراد ان يبرّر هذا التجوز ويجعل لهُ مأخذًا من الدين. قال محمد صديق حسن خان في حسن الاسوة في تفسير قولهِ تعالى "يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين من جلابيبهنّ ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين" : واستنبط بعض اهل العلم من هذه الآية ان ما يفعلهُ علماء هذا الزمان في ملابسهم من سعة الاكمام والعمة ولبس الطيلسان حسنٌ وان لم يفعلهُ السلف لان فيهِ تمييزًا لهم وبذلك يعرفون فيلتفت الى فتاواهم واقوالهم. قال السبكي ومنهُ يعلم ان تمييز الاشراف بعلامة امر مشروع ايضًا انتهى. واقول ما ابرد هذا الاستنباط وما ابعدهُ وما اقلّ نفعهُ وجدواهُ لاسيما بعد ما ورد في السنة المطهرة من النهي عن الاسراف في اللباس واطالتهِ وقد منع من ذلك سلف الامة وائمتها فاين هذا من ذاك وانما هو بدعة قبيحة شنيعة مردودة على صاحبها احدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ومن هنا قال علي القاري في معرض الذم لاهل مكة لهم عمائم كالابراج وكمائم كالاخراج. وما ذكرهُ من ان زيّ العلماء والاشراف في هذا الزمان سنة ردّهُ ابن الحاج في المدخل بانهُ مخالف لزيهم في زمن النبي وزمن الخلفاء الراشدين وبعدهم من خير القرون فان قيل انهم بهِ يعرفون قيل انهم لو بقوا على الزيّ الاول لعرفوا بهِ ايضًا لمخالفتهِ لما عليهِ غيرهم الآن اه

(٤) القلنسوة والقلنسية اذا فتحت القاف ضممت السين واذا ضممت القاف كسرتها تلبس في الراس ج قلانس وقلانيس وقلنس

وليس لدينا الآن من مستند اكيد يُنبئنا بتبدُّل اللباس حيناً بعد آخر الاَّ بقايا مما نُضد في المتاحف العامة من تماثيل الناس وعُرض من ازيائهم على اختلاف العصور والاقطار. قال احدهم اذا اردت ان تعرف العالَم فانظر الى بيتك وعلى من احب الوقوف على ازياء أُمة ان ينظر الى حالتها الحاضرة ويقيس الحاضر بالغابر فالتاريخ يعيد نفسهُ وما اشبه الليلة بالبارحة

وإنك لترى المغربي اليوم يلبس من الثياب ما لا عهد للمصري بهِ ولهذا من الازياء الخاصة ما يباين لباس العراقي والشامي. وللفارسي والطاغستاني ازياء يختلف بعضها عن بعض على قرب الجوار وكذلك اليلوجستاني والافغاني والصيني والهندي والبخاريّ والجاويّ واليمانيّ والزنجباريّ والسوداني والصومالي فلكل من هؤلاء الاجناس زيّ خاص برؤوسهم وابدانهم فمن برنس الى عمامة خضراء او بيضاء الى طربوش اسود او احمر الى عقال وكوفية الى لبادة وقبعة قش او صوف الى قلنسوة وعرقية وكلها تدور على وقاية الرأس من لافح الحر ونافخ البرد

وقد يختلف هذا الزي في القطر الواحد نفسهِ والبلد الواحد ولا يُعلل ذلك الاَّ بتشتت الاهواء واختلاف التربية والملكات خصوصاً في اهل قطر قضي عليهِ ان يكون مزيجاً من اجيال الناس وعناصر بني آدم. حتى ظن مرة احد سياح الافرنج وهو يجول في شوارع دمشق وقد رأى اختلاف الناس في ازيائهم وهندامهم وشاهد انواع الالبسة والاكسية ان عند القوم مرفعاً (كرنفال) ليس لهُ كلٌّ ما يغش بهِ صاحبهُ لتنقلب سحنتهُ وسيمتهُ لما رأى من وجه الشبه بين سكان تلك الحاضرة واهل بلادهِ في اكتساء بعض ابنائها اكسية غريبة للاستضحاك والمزاح في ايام معلومة من السنة

سرى داء الازياء في اهل هذه البلاد وخصوصاً المسلمين منهم فكان لباسهم مدة ثلاثة عشر قرناً وربع قرن تابعاً لتواعل الزمن وعوامل الحكام والاعاظم. ومن العادة ان يتشبه المغلوب بشعار الغالب ومن العادة ان يسنّ عليّة الناس العادات ويتشبّه بهم سائر طبقات القوم اذ يعتقدون الحسن والمصلحة فيما يصدر عن الكبير ويزعمون الخير في تقليدهِ. وقد عقد ابن خلدون فصلاً في ان المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعارهِ وزيهِ ونحلتهِ وسائر احوالهِ وعوائدهِ فما قالهُ فيهِ وانظر الى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على اهلهِ زيّ الحامية وجند السلطان في الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انهُ اذا كانت امة تجاور اخرى ولها الغلب عليها فيسري اليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد من امم الجلالقة (٥)

(٥) جلقية كاثريقية بلد بالروم متاخم للاندلس واليهِ ينسب عبد الرحمن بن مروان الجلقي من الخارجية بالاندلس والجلالقة جيل من الناس (تاج)

فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت

لاجرم ان تغيير الازياء جرى على ما اقتضتهُ حالة المجتمع والسياسة والذوق الخاص بل تصرف على قاعدة بقاء الانسب وارتقاء الازمان. فان المنصور لما رأى الحاجة ماسة الى الاتحاد في لباس الرأس وكانت بدأت المدنية تدبُّ في اعصاب أُمتهِ ودولتهِ الزم الرعية على ما روى الذهبي بلبس القلانس الدنّية مشبهة بالدن [٦] في طول شبرين تعمل من ورق على قصب وتغشى بالسواد قريبة الشبه من الشربوش. قال ابن الاثير وسنة ١٥٣ اخذ المنصور الناس بتلبيس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال ابو دلامة

وكنا نرجّي من إمام زيادة فزاد الامام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كانها دنان يهود جلّلت بالاطالس

ولما عزم السلطان محمود العثماني على استبدال البسة الجند والعمال باللباس الاوربي والاستعاضة عن العمائم العجراء والقواويق بالطرابيش استصدر فتوى من باب المشيخة الاسلامية في لباس السراويل القصيرة على شرط ان لا تكون ضيقة لئلا يحصل التشبه بالافرنج ثم ضاق السراويل على طرفي المدى واصبح كسراويلات الافرنج ومعاطفهم «جاكيتات» وتحسنت حالة الطربوش الى ما نراها عليهِ لهذا العهد وتنوسي انهُ من لبوس الروم

وبعد فان تغيير العادات من شاقّ الاعمال لا يعمل فيها الاّ الأُسوة والتدوة وحب التقليد والزينة فلا تؤثر فيها القوانين الدينية ان وجدت ولا المدنية ان وضعت. قال مونتسكيو في كتابهِ روح الشرائع اذا اراد الحاكم تغيير عادات امة وطبائعها يجب ان يكون ذلك باستبدالها بغيرها لا بقوة القوانين لان القوانين من وضع الحاكم وخاصة بهِ اما الاخلاق والعادات فهي من وضع الامة عامة. وضع بطرس الاكبر احد اعاظم قياصرة الروس قانوناً قضى بهِ على امتهِ ان يحلقوا لحاهم ويلبسوا ثياباً قصيرة كالاوربيين فاقام الجند تكمن في الطرق لتقبض على من خالف هذه الاوامر وتقصر الثياب الطويلة الى قبيل الركبة. قال مونتسكيو وتلك طريقة مجحفة لانهُ لم يكن من حاجة لهذا الملك ان يضع قانوناً توصلاً الى هذا التغيير بل كان يتأتى لهُ الاكتفاء بفعلهِ هو بنفسهِ ليتخذهُ الناس مثالاً

(٦) قال صاحب القاموس دنة القاضي قلنسوته شهت بالدّن والدن الراقود العظيم او اطول من الحب او اصغر له عكس لا يقعد الاّ ان يحفر له قاله الشريشي في شرح المقامة التاسعة للحريري ان اصل الدنية الدنينة كسنينة وهي قلنسوة محددة الاطراف يلبسها القضاة والاكابر وليست من كلام العرب وهي عراقية

وقال بتنام الانكليزي في اصول الشرائع وغرض بطرس الاكبر من هذا الامر اما ان يكون ارضاء لهواه الخاص لاستقباحه لباس امته القديم واستحسانه لباس الاوربيين واما ان يكون قصد الى تهذيبهم وجعل اخلاقهم وطباعهم على مثال الاخلاق الاوربية التي كان يعتقد انها احسن طريق توصلهم الى السعادة فرأى ان التشبه في الاخلاق يلزم ان يتقدمهُ التشبه في اللباس ليتجانس الفكر بين الاثنين . وقال ان مجلس النواب الانكليزي اصدر قانوناً سنة ١٧٤٥ يقضي بهِ على سكان جبال ايكوسيا ان يخلعوا لباسهم الملي وكان الغرض من هذا القانون امراً سياسياً لان هؤلاء الجماعة تعلقوا بهذا اللباس واحتقروا سكان السهول لاكتسائهم الاكسية الاوربية من عهد بعيد فلما لبس زعيم اولئك الجبليين هذا اللباس العتيق اهتزوا طرباً منهُ وانضووا تحت لوائهِ وثاروا على الحكومة فاخضعتهم واطفأت ثائرتهم وطمعت حينئذٍ في ابطال هذا اللباس وكان يهيج في نفوسهم افكاراً قديمة تجعلهم حزباً واحداً وما كان هذا الامر ليُنسيهم ذاك اللباس بل كانت ذكراهُ تتجدد على المدى ودام العمل على هذا خلال نصف قرن تقريباً حتى ظهر للحكومة ان لا فائدة فيهِ وثبت لها وجه ضررهِ فالغتهُ واصبح رجال هاتيك الجبال من اعظم ابطال الجنود واهل الاخلاص من رجال السيف عند الانكليز ولا يبعد ان تفتر هممهم وتضعف عزائمهم لو عاملتهم انكلترا بالاكراه والقسر

نتج من هذه القواعد ان الحاكم اذا اراد احداث تغيير مهم في الامة يجب عليهِ ان يسير الهوينا ويتجانب الطيش والتطرف تفادياً من ايقاد ثائر الشهوات وتحريك النفوس على الانتقاض مما عساهُ يغضبهُ ويوغر صدرهُ وليجتهد ما استطاع ان لا يوجد لهُ اعداء شملهم اليأس . والاشبه بهِ ان يلاطف الجميع ويوفق بين غرضهِ ومرضاتهم ويحترم المنافع كافة ويعوض على الخاسرين ويتحد مع الزمان كيفما كان لان الزمان اكبر مساعد على كل تغيير فهو كالكيماوي يوافق بين المتضادات ويذلل عامة العقبات ويجذب قلوب المخالفين ولا ينبغي للانسان متى كانت القوة الحقيقية في قبضتهِ ان يستخدمها ليريها الناس بل الاجدر بهِ ان يكشف عنها نصف الغطاء لان ذلك ادعى الى النجاح . انتهى

وجملة القول فان اللباس ذوقي حاجي تعمل في تغييرهِ السادات والعادات لا الشرائع والنظامات . والجهاد يغلب فيهِ الاقوياء ويجبن الضعفاء . وما ابعد ان من قدروا ان يصرّفوا على المشرق ضروباً من مذاهبهم وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم يتسنى لهم يوماً ان يصبغوا العالم كلهُ بصبغتهم في كل حال من احوالهِ ليساووهم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل او يأتي على الجامدين تيار مدنية الغرب فيجعلهم صرعى كاعجاز نخل خاوية

محمد كرد علي